تربية الإمام الحسن المجتبى (ع)

<"xml encoding="UTF-8?>

مقدمة :

يحتاج الطفل – أي طفل – إلى هندسة وموازنة بين ميوله وطاقاته ، ويفتقر إلى تربة صالحة ينشأ فيها وتصقل مواهبه .

ويعوزه تنظيف لموارد الثقافة التي يتلقاها ، والحضارة التي يتطبع عليها ، والتربية التي ينشأ عليها .

إنه عالم قائم بنفسه ، يحمل كل سمات الحياة بصورة مصغّرة ، في صخبها وأمنها ، في سعادتها وشقائها ، في ذكائها وبلادتها ، في صفائها وحقدها ، في تفوّقها وتأخّرها ، في إيمانها وجحودها ، في حربها وسلمها ، إلخ .

وهذا ما أشغل العلماء والباحثين ، فراحوا يعدون البحوث ، ويلقون المحاضرات ، ويؤلفون الكتب ، ويوردون النظريات في مسألة (تربية الطفل) .

ونشأ من بينهم عِدَّة ترى أن سلوك الطفل مرتبط بالعوامل الوراثية التي يحملها بين جوانحه ، ورأى عكس ذلك آخرون .

فأرجعوا كل أنماط السلوك الفردي والإجتماعي إلى البيئة والمحيط ، والتربية والتنشئة ، وأنكروا كل أثر إلى الوراثة ينسب .

وبلغ الخصام بين هاتين المدرستين في علم النفس والتربية إلى أنك ما تكاد تفتح كتاباً يتناول موضوع التربية إلا

وجدته إلى إحدى المدرستين يميل ، وعن أحد الرأيين يدافع ، مفنداً الرأي الآخر .

ولعلك تسأل : أي الرأيين أصح ؟ وأي العاملين في سلوك الطفل أهم : الوراثة أم التربية ؟!

فبدلاً من أن نجيبك على سؤالك هذا ، نسأل بدورنا أيضاً : أيهما أهم للسيارة : المحرك ، أم الوقود ؟! هذه هي مشكلة التربية .

وسنلقي الضوء في السطور القادمة على الآثار المترتبة لسيرة الإمام الحسن (عليه السلام) من خلال هذين الجانبين المهمين .

الأول : الوراثة :

ليس هناك من شك بأن للوراثة أثرها الكبير في صياغة الفرد صياغة مكيَّفة بالبيئة التي انبعث منها وخلق فيها .

وبيتُ أبناء أبي طالب ، كان خير البيوت لإنشاء الإنسان الكامل ، فكيف وقد وُلد الحسن (عليه السلام) من عبد المطلب مرّتين ، مرة من علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وأخرى من فاطمة (عليها السلام) بنت النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ .

كما كان علي (عليه السلام) مولوداً عن هاشم مرّتين ، ولا نريد أن نشرح مآثر بيت هاشم ، وبالخصوص أسرة عبد المطلب فيهم ، فإنها ملأت السهل والجبل ، بل نقول : ناهيك عن بيت بزغ منه الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) ، والوصي العظيم الإمام علي (عليه السلام) .

وحسب علمِ حساب الوراثة أن التأثير قد يكون من جهة الأب ، فيستصحب كلَّ سماته وصفاته ، وقد يكون من جانب الأم ، وقد تحقق في الحسن (عليه السلام) هذا الأخير .

فقد برزت فيه سمات أمّه الطاهرة لتعكس صفات والدها العظيم محمد (ص) ، فكان أشبه ما يكون بالنبي منه بالإمام ، وطالما كان يطلق النبي قوله الكريم : (الحسن منّي والحسين من علي) .

وقد يمكن أن نجد تفسيراً لهذه الكلمة في الأحداث التي جرت بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ، وطبيعة الظروف التي قضت عند الحسن (عليه السلام) أن يتخذ منهج الرسول (صلى الله عليه وآله) أُسوةً له ، دقيقة التطبيق شاملة التوفيق .

فيعطي (عليه السلام) الناس من عفوه وصفحه ، ويعطي أعداءه من صُلحه ورِفقه ، مثلما كان يعطي الرسول (صلى الله عليه وآله) تماماً .

كما اقتضت عند الحسين (عليه السلام) أن يبالغ في شِدَّته في الدين ، وغيرته عليه ، ويبدي من منعته ورفعته في أموره ، ما جعـل تشابهاً كبيراً بينه وبين عهد علي (عليه السلام) مع المشركين والكافرين والضالين .

الثاني : التربية :

لقد أولى النبي (صلى الله عليه وآله) ، والوصي (عليه السلام) ، والزهراء (عليها السلام) ، من التربية الإسلامية الصالحة ما أهَّل الإمام الحسن (عليه السلام) للقيادة الكبرى .

فإن بيت الرسالة كان يربّي الحسن (عليه السلام) وهو يعلم ما سوف يكون له من المنزلة في المجتمع الإسلامي ، كما يوضح للمؤمنين منزلته وكرامته .

فكان النبيُّ (صلى الله عليه وآله) يرفعه على صدره ، ثم يقيمه لكي يكون منتصباً ، ويأخذ بيديه يجره إلى طرف وجهه الكريم جرَّاً خفيفاً وهو ينشد قائلاً : (حزقَّةً حزقَّة تَرَقَّ عينَ بَقَّة) .

ومعنى الحزقَّة : القصير الذي يقارب الخطو .

فكان (صلى الله عليه وآله) يلاطفه ويداعبه ، ثم يروح يدعو : (اللَّهُمَّ إني أُحبه فأَحبَّ من يُحبه) .

ويقصد (صلى الله عليه وآله) أن يسمع الناس من أتباعه لكي تمضي سيرتُه فيه أسوة للمؤمنين ، بكرامة الحسن (عليه السلام) واحترامه .

وذات مرة كان النبي (صلى الله عليه وآله) يصلي بالمسلمين في المسجد ، فيسجد ويسجدون ، يرددون في خضوع : سبحان ربي الأعلى وبحمده ، مرة بعد مرة ، ثم ينتظرون الرسول (صلى الله عليه وآله) أن يرفع رأسه ولكن النبيَّ يطيل سجوده ، وهم يتعجبون : ماذا حدث ؟ .

ولولا أنهم يسمعون صوت النبي لايزال يَبعث الهيبة والضراعة في المسجد لظنوا شيئاً .

ولا يزالون كذلك حتى يرفع النبي (صلى الله عليه وآله) رأسه ، وتتم الصلاة ، وهم في أحَرِّ الشوق إلى معرفة سبب إبطائه في السجود فيقول لهم : (جاءَ الحسنُ فركبَ عُنقي ، فأشفقت عليه من أن أُنزله قسراً ، فصبرت حتى نزل اختياراً) .

وحيناً : يصعد النبي (صلى الله عليه وآله) المنبر ويعظ الناس ويرشدهم ، فيأتي الحسنان (عليهما السلام) من جانب المسجد فيتعثَّران بـثَوْبَيهما ، فإذا به (صلى الله عليه وآله) يهبط من المنبر مسرعاً إليهما حتى يأخذهما إلى المنبر ، يجعل أحدهما على وركه اليمنى ، والآخر على اليسرى ، ويستمر قائلاً : (صدق الله ورسوله : (أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ) الأنفال : ٢٨ .

نظرت إلى هذين الصبيَّين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما) .

وكان (صلى الله عليه وآله) يصطحبهما في بعض أسفاره القريبة ، ويُردفهما على بغلته من قُدَّامه ومن خَلْفه ، لئلا يشتاق إليهما فلا يجدهما ، أو لئلا يشتاقا إليه فلا يجدانه .

وكان (صلى الله عليه وآله) يشيد بذكرهما (عليهما السلام) في كلّ مناسبة ، ويظهر كرامتهما إعلاناً أو تنويهاً .

فقد أخذهما (صلى الله عليه وآله) معه يوم المباهلة ، وأخذ أباهما (عليه السلام) ، وأمّهما (عليها السلام) ، فظهر من ساطع برهانهم جميعاً ما أذهل الأساقفة .

ودخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) دار فاطمة (عليها السلام) ، وسَلَّم ثلاثاً على عادته في كلّ دار ، فلم يجبه أحد .

فانصرف إلى فناء ، فقعد في جماعة من أصحابه ، ثم جاء الحسن (عليه السلام) ووثب في حبوة جَدِّه ، فالتزمه جدُّه .

ثم قبَّله في فيه ، ثم راح يقول : (الحَسَن مِنِّي والحسينُ مِن عَلي) .

وكثيراً ما كان الناس يتعجبون من صنع الرسول هذا ، كيف يعلنها لإبْنَيهِ إعلاناً .

فذات مرَّة شاهده أحد أصحابه وهو (صلى الله عليه وآله) يقبل الحسن ويشمُّه ، فقال – وقد كره الصحابي هذا العمل – : إن لي عشرة ما قبَّلت واحداً منهم .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : (مَن لا يَرحَم لا يُرحَم) .

وفي رواية حفص قال : فغضب رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى التمع لونه ، وقال للرجل : (إن كان الله نزع الرحمة من قَلبِك ما أصنع بك ؟) .

ثم لما رأى مناسبة سانحة أردف قائلاً : (الحسن والحسين ابناي ، مَن أَحبَّهما أحبَّنِي ومن أحبَّني أحبه الله ، ومن أحبه الله أدخله الجنة ، ومن أبغضهما أبغضني ، ومن أبغضني أبغضه الله ، ومن أبغضه الله أدخله النار) .

ثم أخذهما هذا عن اليمين ، وذاك عن الشمال ، مبالغة في الحب .

ولطالما كان يسمع الصحابة قولته الكريمة : (هذان ابناي وابنا بنتي ، اللَّهُمَّ إني أُحبهما ، وأُحب من يُحبُّهما) .

أو كلمته العظيمة يقولها وهو يشير إلى الحسن (عليه السلام) : (وأُحبُّ مَن يُحبُّه) .

ويرى أبو هريرة الإمام الحسن (عليه السلام) بعد وفاة جدّه الرسول (صلى الله عليه وآله) فيقول له : أرني أقبل منك حيث رأيت رسول الله يقبّل ، ثمّ قبّل سرّته .

ومن ذلك يظهر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يعلن ذلك إعلاناً ، حتى يراه الناس جميعاً .

وقد بالغ النبيُّ (صلى الله عليه وآله) في مدح الحسنين ، حتى لكان يُظن أنهما أفضل من والدهما علي (عليه السلام) ، ممّا حدا به إلى أن يستدرك ذلك فيقول : (هُمَا فاضلان في الدنيا والآخرة ، وأبوهُمَا خَيرٌ مِنهُما) .

وطالما كان يرفعهما على كتفيه ، يذرع معهما طرقات المدينة ، والناس يشهدون ، ويقول لهما : (نِعْمَ الْجَمل جَمَلُكما ، ونِعْمَ الراكبان أنتما) .

وطالما كان ينادي الناس فيقول (صلى الله عليه وآله) : (الحَسَنُ والحُسَين سيدا شباب أهل الجنة) .

أو يقول (صلى الله عليه وآله) : (الحَسن والحسين رَيحَانَتَاي مِن الدنيا) .

أو يقول (صلى الله عليه وآله) : (الحَسنُ والحُسين إمامان إنْ قَاما وإن قَعَدا) .

ولقد قال (صلى الله عليه وآله) مَرَّة : (إذا كان يوم القيامة ، زُيِّن عرشُ رَبِّ العالمين بكلِّ زينة ، ثم يؤتى بمنبرين من نور طولهما مِائة ميل ، فيوضع أحدهما عن يمين العرش ، والآخر عن يسار العرش ، ثم يؤتى بالحسن والحسين ، فيقوم الحسن على أحدهما ، والحسين على الآخر ، يزيِّن الرب تبارك وتعالى بهما عرشه ، كما يُزَيِّنُ المرأةَ قرطاها).

وعن الرضا عن آبائه (عليهم السلام) قال : (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : الوَلَدُ رَيحانة ، وَرَيحانَتَاي الحسن والحسين) .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : (من أحبَّ الحَسَن والحسين فقد أحَبَّني ، ومن أبغضهُمَا فقد أبغَضَني) .

وعنه (صلى الله عليه وآله) : (الحَسَنُ والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة) .

وروى عمران بن حصين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال له : (يا عمران بن حصين ، إن لكلِّ شيء موقعاً من القلب ، وما وقع موقع هذين من قلبي شيء قط) .

فقلت : كل هذا يا رسول الله ؟!!

قال (صلى الله عليه وآله) : (يا عمران ، وما خفي عليك أكثر ، إن الله أمَرَني بِحُبّهما) .

وروى أبو ذر الغفاري قال : رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقبِّل الحسن بن علي (عليهما السلام) وهو يقول : (من أحب الحسن والحسين وذُرِّيتهما مخلصاً لم تلفح النار وجهه ، ولو كانت ذُنُوبه بعدد رمل عالج ، إلاَّ أن يكون ذنباً يخرجه من الإيمان) .

وروى سلمان فقال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول في الحسن والحسين (عليهما السلام) : (اللَّهُمَّ إنِّي أُحبُّهما ، فأَحبَّهما ، وأَحبِبْ من أحبَّهما) .

وما إلى ذلك من أقوال مضيئة نعلم – علم اليقين – أنها لم تكن صادرة عن نفسه ، بل عن الوحي الذي لم يكن ينطق إلاَّ به .

ولا زالت عناية الرسول (صلى الله عليه وآله) تشمل الوليد حتى شبَّ ، وقد أخذ من منبع الخير ومآثره ، فكان أهلاً لقيادة المسلمين .

وهكذا رآه الرسول (صلى الله عليه وآله) ومن قبله إله الرسول ، إذ أوحى إليه أن يستخلف عليّاً ، ثم حسناً وحسيناً.

فطفق يأمر الناس بمودَّتهم واتِّباعهم واتخاذ سبيلهم ، ولئِنْ شككنا في شيء فلن نشكَّ في أن من رَبَّاه الرسول (صلى الله عليه وآله)، كان أولى الناس بخلافته .